الفصل الخامس

العلاقات المرتبطة بالفشل

سأبحث فى هذا الفصل ، العلاقات المرتبطة بالفشل المدرسى ، ولربما تكون خير وسيلة لتقديمه هى وصف اجتماع للفصل يدور حول القراءة ، عقد مع تلاميذ الصف السادس بمدرسة الشارع الخامس والسبعين ، ومقرى بالمدينة المركزية فى لرس أنجلس . وعلى حافة « واتس Watts » تقع مدرسة الشارع الخامس والسبعين الأولية ، التى تضم ١٩٠٠ تلميذ بكل المشكلات التى تلازم مدرسة كبرى يحتويها مبنى غير ملائم . وكان التلاميذ الذين يناقشون موضوع القراءة قد عقدوا مناقشات كثيرة سابقة فى الفصل فبرعوا فى هذا الأسلوب ، وهو أسلوب شرحناه شرحاً وافيا فى الفصول : ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، وهو فى جوهره وسيلة لإشراك فصل كامل فى التفكير تفكيرا عميقا فى موضوع هام . وبدئت المناقشة بالسؤال : «ما هى القراءة ؟ » وبعد بداية مزعزعة ، إذ كان هذ الطراز من الأسئلة جديدا عليهم ، قال التلاميذ إن القراءة هى الشىء الذى تفعله فى المدرسة ، فأنت تقرأ فى كتاب المطالعة قراءة صامتة أو بصوت مرتفع ، وتقرأ كتب دراسات اجتماعية ، وكتباً علمية ، وكتبا فى الصحة ، وغيرها من الكتب المدرسية ، وتذهب بين حين وآخر إلى المكتبة ، وتقرأ فى « الفصل » بعض الكتب التى تأخذها من المكتبة ، ومع أنك تأخذ أحياناً بعض كتب المكتبة إلى البيت ، فأنت تفعل هذا لعلاقتك بالمدرسة ؛ وناقش الفصل أيضا أهمية القراءة وأثبت أنها أساسية ، لأنه لابد أن يكون هناك قراءة كثيرة فيما بعد فى المدرسة الثانوية وكلما تعلمت القراءة كان عملك أفضل فيما بعد ٥

وطرحت حينئذ السؤال التالى ، « هل القراءة هامة لأى شيء آخر بالإضافة إلى المدرسة ؟ » ثم أضفت : « ماذا تفعلون لو أن المدرس جمع كل الكتب المدرسية من كل طالب فى الفصل وقال إن القراءة الوحيدة من الآن فصاعدا ستكون من المادة التى يحضرها الأطفال أنفسهم إلى الفصل ؟ » وشرحت ذلك بقولى إن على كل الأطفال أن يحصلوا على مادة مكتوبة من خارج المدرسة ومكتبة المدرسة ، ويحضروها إلى الفصل لاستعمالها ككتب مدرسية ، وقد أحدث هذا السؤال الثانى ارتباكا ، إذ ظن عدد كبير من الأطفال أننى اقترحت موقفاً مستحيلا . فان المدرسة لا تستطيع مواصلة عملها بدون كتب مدرسية للمطالعة ، وتبع ذلك مناقشة حول القراءة خارج المدرسة ، فبعض التلاميذ كانوا يقرأون بالفعل قراءة خارجية ، ولكنهم لم يكونوا كثيرين ، وكنت أحاول فهم ما إذا كانوا يعرفون بوجود مادة هامة للقراءة بعيداً عن المدرسة أو لا يعرفون ، وهل فهموا أن المهارة فى القراءة يمكن أن تستخدم فى حياتهم خارج المدرسة ؟ وبعد مناقشة أخرى عرضوا لمكتبة الجماعة ، ولكنهم سلموا بأنها تدخل فى طبيعة الإجابة الصحيحة ، لأن المكتبة فى معظمها كانت مرتبطة بالمدرسة . واستطعت أخيرا أن أفصلهما عن القراءة المدرسية ومثيلتها القراءة المكتبية ، وذلك بطرح السؤال : « إذا أعطيت خمسة دولارات وطلب إليك شراء كتاب ، فمن أين تشتريه ؟ » وأحدث هذا السؤال مزيداً من الارتباك لأن أحداً من تلاميذ الفصل لم يسبق له أن اشترى كتاباً ألبتة (وهذا العمل فى ذاته كان غير عادى ، أى شراء تلميذ فى الفصل السادس للكتب) هذا من ناحية ، ومن الناحية الأخرى ، لعدم معرفتهم بعملية شراء الكتب برمتها ، واستخدام النقود فى شراء كتاب يقرأونه ، وكان معظمهم يعرف أن محلات الكتب موجودة ، ولكن لم يزر أحدها غير واحد أو اثنين وحسب ، ولم يفكروا قط أن باستطاعتهم استخدام محلات الكتب طوال حياتهم فيما بعد . ثم إن الكتب كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالمدرسة ، وأدى السؤال عن شراء الكتاب إلى مناقشة فى مواد القراءة

المنزلية ، فمن أين تأتى هذه المواد ؟ هل كان فى المنزل أى شىء يبدو أنه ذو أهمية لهم ؟ ونشأت بعض الصعوبة فى المناقشة من انعقادها فى المدرسة ، فقد كان الأطفال قد وجهوا إلى فكرة شائعة جداً هى أن ما يناقش فى المدرسة ينبغى أن يكون خاصاً بالمدرسة ، فكان من العسير عليهم وهم فى المدرسة أن يفكروا فى القراءة المنزلية ، وأخيراً دخلنا فى مناقشة مختلف مواد القراءة المنزلية : المجلات والصحف ، وكتب الطهى ، وكتيبات أولاد الكشافة ، والإنجيل والمواد الأخرى الملازمة للقراءة المنزلية التى كانت فى متناول أيديهم بوجه عام ، وعندما سألتهم عما تقرأ أمهاتهم وآباؤهم ، قالوا : « الصحف اليومية » ومع ذلك ، عندما سألتهم لماذا يقرأ أمهاتهم وآباؤهم الصحف لم يعرفوا . ومعظم الأطفال لا يهتمون بالصحف ، ولم يفهموا فيما يبدو سبب قراءة آبائهم لها بمثل هذا الاهتمام ، وكان عدد قليل يلقى نظرة عاجلة على صفحات الرياضة من حين لآخر ، ونحو النصف على الصفحات الهزلية ، أما الصحف فكانت بالنسبة لمعظم تلاميذ الفصل شيئاً وجد لأغراض لا تمت لحياتهم بصلة .

ولاحظت أن ولداً واحداً يجلس بجوار المعلمة يهمس لها بشىء ما ، ثم رفع يده ، وعندما ناديته قال إنه يقرأ الكتب الهزلية ، وسألته عما إذا كان يستمتع بالكتب الهزلية فأجاب إنه يستمتع بها إلى حد كبير جداً ، وعندما اشترك الفصل فى شىء من الحماسة ظهر أن كل تلميذ تقريباً قرأ كتباً هزلية ، وقايض بكتب هزلية ، بل اشترى كتبا هزلية من المتجر المجاور ، أى أنها كانت موضع اهتمام الفصل على وجه التأكيد . وسألتهم حينئذ عما إذا كانوا يحضرون الكتب الهزلية إلى المدرسة لقراءتها ، مادامت مسلية إلى هذا الحد ، فقالوا إن ذلك كان نادرا ، ولكنهم يفعلونه بحذر . ويبدو أنه كان هناك قانون مدرسى غير مكتوب يحرم الكتب الهزلية ، وكان بعض المدرسين ينتزعون الكتب الهزلية إذا ما وجدوها (وإن لم تكن ملكا لهم) ، ونظرا لندرة الكتب الهزلية — كما كان توافر ثمن شرائها

نادرا — فقد كان الأطفال يحذرون حملها معهم إلى المدرسة خشية مصادرتها . وأجاب الأطفال بأن الكتب الهزلية سيئة ، وهى سيئة لأنها ليست قراءة مدرسية ولا علاقة لها بالمدرسة ، واتخذ الأطفال المرادفات الأخلاقية لكلمتى حسن وردىء ، لأنواع معينة من القراءة ، واعتبرت الكتب الهزلية أخلاقية ، ووجدت أخيرا أن الولد الذى ذكر الكتب الهزلية سمع أولا بمريحا من معلمته للتحدث بشأنها ، فلم يشأ أن يذكرها لى فى المدرسة وفى حضور المدرسين الآخرين الذين يراقبون اجتماع المجموعة هذا ما لم يكن مصدقاً على هذا الحديث .

وانتهت المناقشة بعد أن عثرت على هذا الهدف المفعم بالحماسة للقراءة ، بمتعة وجيزة . لقد قضى هؤلاء الأطفال ست سنوات بالمدرسة ، فكان ما يقرأونه بمنتهى السرور خارج المدرسة لا تقره المدرسة من ناحية ، وما يقرأونه فى المدرسة ، وهو الكتب المدرسية بنوع خاص لا صلة له بعالمهم الخاص خارج المدرسة ، من الناحية الأخرى . وكان يوافق على الكتب المدرسية بل وتشمل بالاهتمام مادامت تتعلق بعالم المدرسة المحدود ، الحاضر والمستقبل .

إن هذا الازدواج فى موقف الأطفال يشكل فى نظرى مشكلة خطيرة ، إذ من الواضح أنه يبرز وجها من وجهى المطابقة فى المدرسة ، ولنفرض أن ذهابنا إلى المدرسة هو تعلم المهارات التى نستخدمها فى حياتنا خارج المدرسة ، ولكن الرابطة الوحيدة التى تربط تلاميذ الفصل السادس هؤلاء فى خارج المدرسة بأهم مهارة تعلموها وهى القراءة ، إما رابطة سلبية (الكتب الهزلية) أو غير موجودة (فيما يتعلق بأى شىء آخر) ، وبعبارة أخرى ، كان عملهم المدرسى منفصلا انفصالا تاماً عن عالمهم خارج المدرسة ، فاعتقدوا أن القراءة إما غير ملائمة لعالمهم ، وإما أنها خاطئة ، إذا كانت غير ملائمة .

إننا على هذا الأساس من العلاقة الوثيقة بين المدرسة والحياة ، نستطيع

أن نحسن فهم مشكلات القراءة لدى هؤلاء الأطفال القادمين من الأحياء الفقيرة ، وكذلك لدى غيرهم من الأطفال ، ويمكن للأطفال بلوغ الهدف الأكبر من القراءة — المتعة — عن طريق الكتب الهزلية وحدها فى مناقشة المجموعة . وأنا أزعم وجود كثيرين غيرهم فى المنطقة . ونحن نرفض إدراك أن القراءة بالنسبة لعدد كبير من الأطفال فى المدينة المركزية ، وربما لمعظمهم ، لا تؤدى إلى أى وضع ، ولما كانت معظم الكتب المدرسية كئيبة جافة ، ولا تثير اهتماما ، فان القراءة تتوقف فى المدرسة فى مستوى أقل كثيرا من المطلوب للاستمتاع بالكتب ، فيما عدا الكتب الهزلية . إن الأطفال بحاجة إلى حافز للقراءة خارج المدرسة ، ولكونهم لا يدركون العلاقة بين القراءة المدرسية والقراءة الخارجية ، ولكون الكتب المدرسية نفسها غير حافزة نسبياً ، فان عددا كبيرا من الأطفال لا يتعلمون ألبتة إتقان القراءة إلى الحد الذى يكفل لهم الاستمتاع بأى شىء فيما عدا الكتب الهزلية ، إنهم يفتقدون ميزة تعلم القراءة برمتها ! ما لم يكن تعليم الأطفال فى كتب مدرسية لها نفس جاذبية الكتب الهزلية ، وما لم يتكشف بوسيلة ما ، إحضار كتب غير مدرسية ذات جاذبية مساوية ، إلى بيوت الأطفال . وذلك لأن كثيرا من قراءة الطفل لا تتعدى مطلقاً النشاط المدرسى .

إن أهم موضوع فى المدارس الأولية ، وبالإضافة إلى القراءة ، هو أننا يجب أن نحاول ربط كل مادة تدرس — الحساب والدراسات الاجتماعية ، والعلوم والصحة ، بل والهجاء والخط — بشىء يعمله الأطفال فى حياتهم الخاصة خارج المدرسة . وعندما تفتقد العلاقة الوثيقة فى المنهج ، لا يحصل الأطفال على الحافز إلى التعلم ؛ ولما كانت الدراسات ستنعقد فى السنوات المدرسية التالية ، فان المواد التى تحفز الطلبة وحسب ، هى التى ستتفوق ، ويقف الأطفال جامدين .. ثم يفشلون . ولا نستطيع الاعتماد على حب الاستطلاع الطبيعى عند الأطفال لتغطية ثغرة الصلة بالموضوع ، لأن هذا كثيراً جداً ما يفشل ، وبخاصة بين الأطفال الذين ينتمون إلى أصول

واهتمامات تختلف عن أصول واهتمامات مدرسيهم . فمن الأيسر مثلا على المدرسة التى تنتمى إلى الطبقة الوسطى أن تدرس هذه الأشياء لطلبة من الطبقة الوسطى من أن تدرسها لتلاميذ من الأحياء الفقيرة لا تفهم عالمهم ، وهى كثيراً ما تحاول تشكيل تلاميذهم وفق قالب حياتها الخاصة بدلا من محاولة تشكيل تدريسها وفق عالمهم ، ولا أقول بوجوب استخدام مدرسين ينتمون إلى نفس أصول الأطفال ، ولكن يجب أن يعرف المدرسون تدريس ما هو أكثر أهمية لهم فى حياتهم الخاصة . والمدرسون معوقون أيضاً بسبب استعمال الكتب المدرسية بصورة شاملة تقريبا ، واعتقادهم بضرورة الاعتماد عليها كل الاعتماد ، ونصوص القراءة فى الصفوف الابتدائية مكتوبة لطائفة محدودة من أطفال الطبقة الوسطى القادمين من بيوت سليمة ، وليس فيها مشكلات ظاهرة ، وهى حالة غير حقيقية بالنسبة لنصف أطفال الطبقة المتوسطة وكل أطفال الأحياء الفقيرة تقريباً . وبالرغم من أن بعض الكتب المدرسية الجديدة تعرض وجوهاً زنجية قليلة ، فهى مجرد متممات للطبقة الوسطى من البيض ، وتغيير لا يحمل أى مغزى . وخير إجراء هو التخلص من الكتب المدرسية جميعاً ، على أن تختار كل منطقة مدرسية ، الكتب من المجموعات ذات الأغلفة الورقية الرخيصة الوثيقة الصلة بالموضوعات ، والتى أصبحت الآن متاحة على نطاق واسع . والكتب ذات الأغلفة الورقية رخيصة ويمكن حملها إلى البيت ، وهى سريعة الاستهلاك ، ويمكن تغييرها حسب الطلب لضمان ملاءمتها ؛ وسيوفر استعمال المدارس للكتب ذات الأغلفة الورقية على نطاق واسع ، الحافز لناشرى الكتب لتقديمها بأعداد أكبر وحالة أفضل وبأسعار أرخص ، ومادامت الكتب المدرسية ضرورية ، فيجب أن تربط الطفل بعالمه ربطا واضحا . ولإجمال الشطر الأول من الملاءمة ، نقول إذن إن المدارس لا تعلم عادة منهجا ملائماً ، وهى حين تفعل هذا ، « تفشل فى تعليم الطفل كيف يربط تعليمه بحياته خارج المدرسة ».

أما الوجه الآخر — وهو الشطر الثانى من العلاقة — فيمكن شرحه بمثال

من اجتماع ثان عقد مع تلاميذ الصف الرابع باحدى مدارس الضواحى ، وكان آباء الأطفال من المهنيين أو المديرين الناجحين ، وكانت الدرجات المتقدمة مألوفة بين الآباء ، والتربية موضع تقدير عال فى معظم بيوتهم ، على عكس طلبة مدرسة الشارع الخامس والسبعين الذين كانوا قد عقدوا عدة اجتماعات للفصل . فطلبة الفصل الرابع هؤلاء ، لم يشتركوا ألبتة من قبل فى مناقشة من هذا النوع . وعقد اجتماع للمناقشة أمام مجموعة كبيرة من المدرسين ، إذا كان اجتماعاً توضيحياً ؛ ولما كان الوقت مساء ، فقد كان عدد كبير من آباء الأطفال فى مؤخرة الحاضرين ، وسرعان ما اشترك الأطفال فى هذه الاجتماعات ، ولذلك لم يكن للحاضرين أثر واضح .

وبدأت المناقشة بسؤالى التالى : « ماذا يريد المدرسون من التلاميذ فى المدرسة ؟ » وبعد شىء من التردد المبدئى أجابت المجموعة بأن المدرسين يريدون أن يتعلم الأطفال وأن يتصرفوا تصرفاً طيباً ، وأن يحصلوا على درجات عالية ، وأن يذهبوا إلى الكلية . وكان الأطفال يرددون كل الإجابات ذات الصيغة الوتيرية التى سمعوها طويلا من آبائهم ومدرسيهم ؛ ومع ذلك فحين طرحت أسئلتى بصورة أوضح ، وسألت عما يريده المدرسون من الأطفال كل يوم ، قالوا إن المدرسين يريدون إجابات ، فسألت : « إجابات عن ماذا ؟ » قال الأطفال : الإجابات الشفوية والمكتوبة لكل أنواع الأسئلة التى يطرحها المدرسون . ولما كنت أتابع نهجاً معيناً ، فقد طلبت من الأطفال مناقشة أنواع الإجابات التى يريدها المدرسون ، فهل كان يريد المدرسون أى نوع معين من الإجابة ؟ وبعد تردد قليل ، وبدايات خاطئة ، أجاب أحد الأطفال : « حقاً ، إن ما يريده المدرس هو الإجابات الصحيحة » . وحين اتبعت ذلك بقولى : « هل تعنى أن الأسئلة التى توجه ، أسئلة يمكن الإجابة عليها إجابة صحيحة ؟ » وكانت هناك موافقة عامة على أنها كذلك . وحينئذ سألتهم : « هل يمكن أن يسأل المدرس أسئلة ليست لها إجابات صحيحة أو خاطئة ، ولكن يمكن أن يكون لها

مع ذلك إجابات هامة ؟ » وأوقع هذا السؤال الحيرة بين التلاميذ ، ولم يستطيعوا الرجوع إلى صوابهم حتى نهاية المناقشة . وبالرغم من الكلام الطويل لم تظهر إجابة مرضية ؛ ولما كنت فى موقف تعليمى ، ولما كنت فى داخل مدرسة ، فقد كان توجيه التلاميذ برمته تقريباً نحو الإجابات الخطأ والصواب ، ومع ذلك قال أحد الأولاد ، « هل تقصد أسئلة تقول عنها آراءنا ؟ » ولما طلبت مواصلة الحديث ، قال : « حقاً ، هل يسأل المدرسون أبداً أسئلة تتطلب آراء الطلبة فى الفصل ؟ » ثم أخذ يفكر برهة ، وفكر الآخرون برهة ، وقرروا أن ما فكروا فيه — آراؤهم وأفكارهم ، وأحكامهم ، وملاحظاتهم — قلما كانوا يسألون عنه فى الفصل .

كنت أسأل وكانوا يفهمون هذا على أحسن وجه ، لا بالنسبة لإجابات الصف الأول فى جلسة « اعرض وقل » ، ماذا فعلنا فى البيت ، أو ماذا فعلنا فى العطلة ، ولكن بالنسبة للإجابات التى كانت تتطلب رأيا خاصا من جانبهم ، وقد أربكتهم طريقتى . لأن أسئلة أخذ الرأى لم تكن توجه إليهم مطلقا تقريبا فى الفصل ، فقد كرهوا استطلاع الموضوع إلى أبعد من ذلك ، لأنهم لم يظنوا أن آراءهم موضوع ملائم لمناقشة مدرسية . وكان لابد لسؤالى أن يثير مناقشات أكثر مما دار فى ذلك المساء ، وكانت كراهيتهم للتحدث عن اهتماماتهم وأفكارهم ومشاعرهم وآرائهم واضحة . إذ كانوا يغيرون أوضاعهم فى مقاعدهم فى اضطراب وينظرون متسائلين بين بعضهم البعض ، وأظهروا بوجه عام علامات القلق الحاد ، ولكونهم وضعوا فى موقف لم يتأهبوا له ، لم يكن لديهم تقريبا ما يقولونه ، ولم يصدقوا أن آراءهم (وما يجلبونه من عالمهم إلى المدرسة) ذات أهمية فى التربية ، ولم يستطيعوا إدراك الصلة بين أفكارهم الخاصة ومناقشة تجرى فى المدرسة ، ولم يكن ابيحث عن آرائهم وأفكارهم وأحكامهم إبان السنوات الأربع التى قضوها فى المدرسة ، ولم يكن هناك ما يدعوهم إلى التفكير فى أن هذا يمكن أن يحدث أبدا ، وعندما أدركت الرئيسة أن الأطفال قد بلغوا غايتهم أخيرا ، دخلت

فصلهم فى اليوم التالى لمواصلة النقاش وقالت إنها تلقت كمية هائلة من إجابات الأطفال حين بدأوا يفهمون أن ما أرادته هو رأيهم الصادق فى مسألة الإجابة المفتوحة ، لا الإجابة الصحيحة ، فأدلوا بآرائهم فى سرعة وعنف أثناء اختيارهم الموضوع تلو الآخر عن الآباء والمدرسين والعمل المنزلى والدرجات والموقف العالمى .

يمكننا أن نرى هنا الجانب الآخر من العلاقة الوثيقة . يجب أن تكون المدرسة هى المكان الذى يمكن أن يعبر فيه الأطفال عن أفكارهم الخاصة القائمة على الملاحظات والخبرات ، ويحصلون على الإشباع نتيجة لمعرفتهم أن المدرسة تهتم بما يقولونه . ولقد مضت خمس سنوات على الأقل ، ولا يكاد يفكر ألبتة تلاميذ الصف السادس الأذكياء التواقون اليقظون فى أن المدرسة يمكن أن تكون مكاناً لتعلم الحقائق ودراسة أفكار الآخرين المسلم بها والتى لم تعد مثاراً للجدل ، أما ما يجب عليهم الإسهام فيه ، وما حصلوا عليه من عالمهم ، فلم يكن يقام له فى المدرسة وزن .

ومن ثمة ، يكون لدينا الآن من شطرى العلاقة :

١ — إن كثيراً جداً مما يدرس فى المدرسة لا علاقة له بعالم الأطفال ، وحين يكون ذا علاقة به ، يغلب كثيراً ألا تدرس هذه العلاقة ، ومن ثمة تضيع قيمتها عندما توجد .

٢ — لا يعتبر الأطفال أن ما يتعلمونه فى عالمهم ذا علاقة بالمدرسة .

إن العلاقة الوثيقة ، وهى المزج بين عالم المرء وعالم المدرسة الجديد ، قامت على أساس ضعيف بالنسبة للتلاميذ فى المثال الثانى ، ويحتمل أن تكون كذلك بالنسبة لمعظم التلاميذ ، بل يبدو أن الطفل تضايق منى قليلا لأننى اقترحت أن أفكارهم قد تكون ذات أهمية فى المدرسة ، وظنوا فى الحقيقة أن هذا خطأ ، وغالباً بنفس الطريقة التى فكر بها الطلبة فى المثال الأول ،

وهى أن قراءة الكتب الهزلية خطأ . ومن الخطأ البين ألا تربط المدارس ما يدرس بعالم الأطفال ، وألا يربط الأطفال ما يتعلمونه بعالم المدرسة ، ولكن حتى حاجز عدم وجود علاقة قد ازداد بناؤه ارتفاعاً بسبب الفكرة القائلة بأن ما يتعلمه الأطفال أو يفعلونه فى عالمهم يعتبر خاطئاً إلى حد ما إذا قورن بما يتعلمونه فى المدرسة .

يضاف إلى هذا أن الأطفال فى الفصل الثانى غضبوا قليلا حين اقترحت أنهم يضلون سبيل الأمان والألفة السهل ، المؤدى إلى الإجابات الصحيحة ، ويشقون طريقاً للأفكار والآراء أقل ألفة بكثير ، وكانت القوة الدافعة لإيجاد علاقة قد سحقت سحقاً إيجابياً . ولاطمئنانهم فى عالم المدرسة باجاباتها الصحيحة وعملها السهل نسبياً ، لم يرغبوا فى ربط حياتهم الخاصة بالمدرسة ، إذ ربما لا يكون الحال ميسراً إلى حد كبير ، ولاشك أن هؤلاء الأطفال الأذكياء ، وهم فى مدرسة حسنة من مدارس الضواحى لم يكونوا تقريباً المشكلة التى يقابلها المدرسون فى مدارس المدينة المركزية ، ومع ذلك فان لدى الأطفال مشكلات بالفعل بالرغم من أنهم لا يهتمون عادة اهتماماً جدياً كافياً لتحريك كثير من المربين الراضين فى الضواحى ، نحو الأفكار الجديدة مثل اجتماعات الفصل ، ويلوم المربون الآباء على تصرف الأولاد تصرفا سيئاً ، ويقبل الآباء هذا اللوم ، ويأخذون الأطفال أحياناً إلى الأطباء النفسانيين ، وأنا أدرك هذه الحقيقة من خلال خبرتى الشخصية الطويلة .

ويتعلم معظم هؤلاء التلاميذ الأذكياء الإجابات الصحيحة بسهولة ، ويحصلون على درجات عالية فى الامتحانات ، ويسرعون إلى التعليم العالى ، ولسوء الحظ ، أن هؤلاء التلاميذ أنفسهم يخلقون الآن مشكلات فى معظم الكليات مطالبين — بين مطالب أخرى — بادخال العلاقة فى التربية . وقد أجرى أخيراً اقتراع بكلية « سان فرناندو فالى » الحكومية ، وهى كلية كبرى تابعة للولاية بضواحى لوس انجلس ، وكان السبب فى سخط الطلبة

هو عدم ارتباط المنهج بحياتهم ؛ وقال نحو ٦٠ فى المائة من التلاميذ أنهم لا يستطيعون رؤية أية علاقة بين ما كانوا يفعلونه فى المدرسة وما يتوقعون عمله فيما بعد ، وكانوا يشعرون بالمرارة ويشتكون من عدم وجود ملاءمة . فاذا كان الغضب فى حرم كليتنا يبدو غير متناسب مع ما يبدو أنه مشكلات فى حرم الكلية نفسه ، فأنا أقترح أن يكون الغضب ناشئاً ، لا من عدم ترابط تربية طلبة الكلية وحسب ، بل من إدراكهم المفاجىء أن خبراتهم التربوية جميعاً ، من الصف الأول وما يليه ، كانت غير مرتبطة ؛ فالغضب الذى يغلى الآن يرجع إلى أعماق هذه السنين الكثيرة من الاحباط التربوى ، حتى أن يتفجر فى الكلية ، فمن حق التلاميذ أن ينالوا تربية مترابطة ، فاذا كنا نحاول تدريسهم موضوعات أكثر مما ينبغى ، ولا تمت لحياتهم بصلة ، فانهم سوف يفقدون الاهتمام على الدوام ، ويأخذون فى الفشل ، هذا بالإضافة إلى أننا نخطىء خطأ جسيما إذا كنا نسلم جدلا بأن التلاميذ يستطيعون رؤية العلاقة فى مادة بعينها كما نراها نحن سواء بسواء ، فأقترح إذن أن يكون تدريس هذه العلاقة نفسه جزءاً من التربية .

إن علاقة مادة ما واضحة ، فتعلم الأطفال الصغار القراءة وحل الحساب ذو أهمية لهم ، ولكنهم سرعان ما يتمردون ضد القراءة وحل الحساب اللذين يجب أن يرتبطا بحياتهم بطريقة ما ؛ فاذا كنا لا نستطيع عمل شىء أكثر من هذا فيجب أن نشرح للأطفال أن ما يتعلمونه جزء من المعرفة العامة التى وجد أنها ذات قيمة ، وحتى إذا لم يجدوا لها أهمية مباشرة فيجب أن يسلموا عن يقين بأهميتها فى التعليم العام ، كما يجب أن نكون صادقين فنقول إن موضوعات معينة تدرس فقط لأن التلاميذ سيختبرون فيها بواسطة الدولة ، أو للالتحاق بالكلية ؛ وعندما تكون هناك موضوعات فى المنهج لأغراض لا نفهمها نحن معشر المدرسين ، فيجب أن نقول هذا للتلاميذ ، ونشرح لهم أننا بحاجة إلى تدريس هذه الموضوعات بطريقة أو بأخرى ، وإذا كان لابد لنا من مواصلة تدريس المواد غير الملائمة ، فان هذا الشرح سيفيد

إلى حد ما . والصدق حافز قوى نوعا ما إذا كانت المعلمة على صلة طيبة بفصلها ، وإذا كان فصلها متوسط الذكاء وذا حساسية ، وإذا كانت هى قادرة على إدخال مادة ملائمة من خلال اجتماعات الفصل والمناقشات .

ولكن الصدق فى ذاته لا يكفى إلى ما لا نهاية ، أو بالنسبة إلى منهج مكتظ بأشياء غير ملائمة ، فيجب تنقيح المنهج وإلا خسرنا التلاميذ عاجلا أو آجلا لأنهم سوف لا يتعلمون ما ليس له عندهم مغزى ، وحتى إذا تعلموه ، فان هذا يكون بمثابة تضييع للوقت .

أثناء عملى أخيراً مع مجموعة من تلاميذ الفصل السادس ، سألتهم عما كانوا يدرسون فى الرياضيات ، وكان الهدف من سؤالى اختبار العلاقة والكشف عما كانوا يتعلمون ، أو لا يتعلمون ، ما كانت المدرسة تحاول تدريسهم إياه ، فلما قال تلاميذ الفصل أنهم كانوا يتعلمون الأعداد الرومانية سألتهم عن فائدة الأعداد الرومانية ، وبعد نقاش طويل لم نستطع الوصول إلى شىء أكثر من أنها تستعمل فى ترقيم الفصول فى بعض الكتب ، ومع ذلك فقد شعر تلاميذ الفصل أنه ينبغى أن يتعلموها على يد مدرستهم ، وهى مدرسة ممتازة يشتركون معها عن كثب . وفى يأسى من محاولة حمل الفصل على التفكير فى علاقة ما كانوا يتعلمونه ، سألتهم : « هل يستعملون الأعداد الرومانية فى روما ؟ » وقرر الفصل فى ابتهاج كبير أنه إذا كانت الأعداد الرومانية تستعمل فى روما ، فيكون تعلم الأعداد الرومانية فكرة صائبة ، ولابد حينئذ أن يستعدوا إذا ذهبوا مرة إلى روما ، ومع ذلك لم تستمر هذه الفكرة التى كانت تبدو صائبة مدة طويلة ، لأن أحد الأولاد كان قد ذهب إلى روما فى الصيف الماضى ، فأخبر الفصل أنه طوال المدة التى قضاها هنالك لم يشاهد أبداً عددا رومانيا ، واضطرب الفصل لهذا الخبر غير المتوقع ، وإن كانت المدرسات قد وجدن فيه خبراً مضحكا جدا ؛ ولم يذكر هذا المثال لوضع المعلمة فى موقف حرج ، فان خلو المنهج الرسمى

من الملاءمة لا يرجع إليها ، ولابد لها من تدريس هذه المواد ، سواء أرادت أو لم ترد .

لئن كان لمعرفة الأعداد الرومانية بعض الفائدة ، فلا داعى لاختبار التلاميذ وإعطائهم درجات على هذا النوع من المعرفة ، وفى محاولتنا استخدام الدرجات لإجبار التلاميذ على تعلم مادة غير ملائمة ، فإننا ننجح فقط مع أولئك الناجحين بوجه عام ، ولكن ذلك يؤدى إلى العكس تماما فيما يتعلق بالفاشلين ، فيجب أن نحاول تحطيم التفاوت الكبير بين المادة المدرسية والعالم الخارجى . والذى يحفز الأطفال هو مادة التلفزيون والراديو ، ثم الصحف والمجلات بين حين وآخر ، وكتاب هذه المادة يفشلون إذا كانت غير ملائمة كلية ، ويجب على المدرسة استخدام المجلات والصحف وبرامج التلفزيون كمعينات دون إدانتها أو إهمالها لأنها تعتبر غير معادية للتربية .

هناك فشل خطير فى معظم المواد الدراسية ، وهى التى استنزف منها الانفعال كلية . فالانفعال يساعد الطفل على رؤية العلاقة فيما يدرسه ، ومعظم المواد المدرسية صلتها قليلة أو منعدمة بثقافة الطفل ، وبخاصة ما فيها من مضمون انفعالى . وهناك كثير جداً من المادة المدرسية غير واقعى وغير مثير ، وكئيب ، فما لم تتغير المواد المدرسية سيزداد الفشل ، إذ يبدو أن الأطفال لا يستطيعون الانطلاق دون معبر عاطفى يوصلهم إلى العلاقة ، وليس الانفعال ضرورياً فى المادة المدرسية وحسب ، ولكن الانفعال البالغ الأهمية فى ذاته ، فى حياة الأطفال ، يجب أيضا أن يكون موجوداً فى الفصل ، فالضحك والصياح ، والاستجابات المتساوقة النغمات المرتفعة ، بل والصراخ ، كلها تشكل جزءاً من أى تجربة تعليمية ناجحة . ويجب أن تسمع من كل فصل ، لأن الفصل الهادىء ، الخاضع للنظام ، الخالى من الانفعال كلية ، قلما يكون فصلا للعلم ، والهدوء والخضوع للنظام ليس لها مكان فى التعليم مثل جميع الفضائل الشاملة . وبقدر ما رأيت من

تطبيقهما ، أرى أن ضررهما يفوق نفعهما إذ أنهما يوسعان الثغرة بين المدرسة والعالم .

ولوثاقة صلة هذا الفصل بالموضوع ، أحب أن أختمه بالاستشهاد التالى (١) .

لم تعد المدارس تتعامل مع طالب سنة ١٩٠٠ الذى كانت مصادر معلوماته محددة بالبيت والكنيسة والمدرسة ، وشلة الجيرة ؛ أما الطالب اليوم فيأتى مجهزاً بذخيرة وافرة من الحقائق والخبرات الملتقطة من الأوساط الجديدة ، وقد ماتت بموت إديسون جميع التشبيهات التى تقارن العقل بالصفحة البيضاء أو الدلو الفارغ ، وأصبح المدرس الآن فى منافسة مع طائفة كبيرة من نقلة المعلومات ، معظمهم أسرع وأغنى وأكفأ منه كثيراً ، فالعلاقة والكفاءة وسيلتان تربويتان لا يملك التلاميذ مقاومتهما .

إن انتقاد كتاب Up the Down Stàircase تأليف « بل كوفمان Bel Kaufman » ، يعد امتهانا لشىء يكاد أن يكون مقدساً ، لأنه إنسانى جدا ، ومتعاطف معنا إلى حد بعيد ، فيما نحب وفيما نكره ، ولكن السيدة جعلتنى حزينا بقولها فى صفحة ١٩٨ : « لا أظن أننى نفذت إلى صميم نفوسهم بالرغم من تخطيطاتى الدقيقة على الورق .. إن المشكلة هى افتقارهم التام إلى الخلفية » . وقال لى صبى : « إننى لم أقرأ كتابا قط فى حياتى ، فلا أبدأ الآن » .

أيتها المخلصة « بل » إن لهم خلفية ، وهى الشىء الوحيد الذى نعتقد أنه لديهم ، ولكنها قد لا تشبه كثيرا خلفيتك أو خلفيتى ، وهى ليست موشاة بعناوين الكتب العظيمة التى تأتينا من العالم الغربى ، إلا أنها موجودة ، ونحن نعرف على وجه التأكيد أنها حافلة بكثير من مادة التلفزيون ، فى انتظار

---

(١) مقال للأب جون كلكن بعنوان « I was a Teenage Movie Teacher » نشر بمجلة Saturday Review فى ١٦ يولية سنة ١٩٦٦ ص ٥١ و ٧٢ . وحقوق الطبع محفوظة لمجلة Saturday Review المندمجة سنة ١٩٦٦ .

أن يضغط عليها برفق ، بالأسئلة الفاحصة عن الزائف والحقيقى ، والكاسبين والخاسرين ، والأسلوب والزخرف — كل الطرق الجديدة التى تعالج الأفكار القديمة فيما يتعلق بالحقيقة والخير والجمال ، فاذا كانت المدرسة مهتمة بالاتصال بهؤلاء التلاميذ ، فعلى المدرسة أن تفحص خلفيتهم ، ومهما كان الهدف النهائى ، فهناك مكان واحد فقط للبداية ، وذلك هو — حيث يكونون .

ندر ما يشعر المدرسون بالبعد عن أطفالهم ، ولكن قلما يسهل عليهم إنشاء صلة بعالمهم ، ونحن نتصل بالناس ، بايجاد شىء مشترك معهم ، وهناك شىء واحد يمكن أن يكون مشتركا بين الجميع ، هو وسائل الاتصال الجماهيرية ، والتلفزيون والفيلم يساعدان على تجسيد أحلام تلاميذ اليوم ؛ وكثيراً ما يكون لدى التلاميذ نوع من العجز عن مقاومة وسائل الاتصال ، وهو عجز مباشر ، ولكنه طريقة جذابة للاهتمام ، فهم يحبون التحدث عن برامج التليفزيون والأفلام السينمائية ، ولا يدركون كم يتحدثون عن أنفسهم فى هذه العملية ، فاذا لم يشاهد المدرس هذه البرامج ، وإذا لم يناقشها مع الأطفال ، فانه يضل أيسر طريق إلى استراق ما يدور فى عالمهم الخاص ، وهذا هو السبب فى أن موقف كل هذه النخبة المختارة إزاء قضية الثقافة الشعبية ذو أهمية كبرى . ويزهو المترفعون بأنهم لا يشاهدون التليفزيون ، وهذا شىء سىء للغاية ، فماذا يحدث حين يأخذ هذا المدرس المحروم ثقافياً فى تسجيل غنائى لشعر عصر اليصابات؟ لا يحدث له شىء كثير . ويجرى بين الأطفال والمدرس حديث مهذب يعطونه بسخاء واحترام حتى ليظن المدرس أن شيئاً ما يحدث فى الفصل ، وإذا أحبوا المدرس فانهم يكونون شديدو الكرم فى حبس الحقيقة عنه ، وإذا كانوا لا يحبونه فهم أيضا يخافون كثيراً أن يذهب فوزهم سدى من جراء تصديقه على بطاقة السجل ، فهم قلما يقولون ما يفكرون فيه حقيقة ، فلا يحب أحد سماعه غير المدرس العظيم بطبيعة الحال ، الذى يطلق عليه بحق الشخص المناسب ، الشخص الذى يفهم ، ويتصل ويتغلغل .